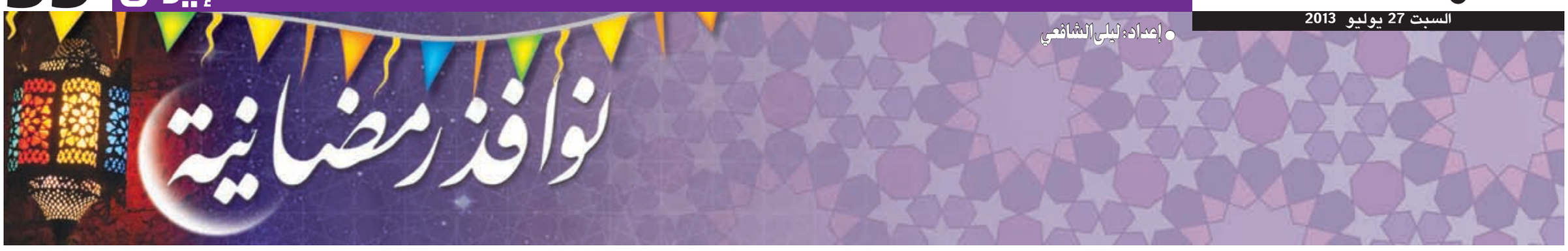

● إعداد: ليلى الشافعي

الرجال مواقف

حذيفة بن اليمان.. عدو النفاق وصديق الوضوح

خرج أهل المدائن أفواجا يستقبلون واليهم الجديد الذي اختاره لهم أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، خرجوا تسبقهم أشواقهم إلى هذا الصحابي الجليل الذي سمعوا الكثير عن ورعه وتقاه، وسمعوا أكثر عن بلائه العظيم في فتوحات العراق، وإذ هم ينتظرون الموكب الوافد، أبصروا أمامهم رجلا مضيئا، يركب حمارا على ظهره إكاف قديم، وقد أسدل الرجل ساقيه، وأمسك بكلتا يديه رغيفا وملحا، وهو يأكل ويمضغ طعامه، وحين توسط جمعهم، وعرفوا أنه حذيفة بن اليمان الوالي الذي ينتظرون، كاد صوابهم يطير، ولكن فيم العجب؟ وماذا كانوا يتوقعون أن يجيء في اختيار عمر؟ الحق أنهم معذورون، فما عهدت بلادهم أيام فارس، ولا قبل فارس ولاة من هذا الطراز الجليل.

وسار حذيفة، والناس محتشدون حوله، وحافون به، وحين رآهم يحدقون فيه كأنهم ينتظرون منه حديثا، ألقى على وجوههم نظرة فاحصة ثم قال: «إياكم ومواقف الفتن»، قالوا: وما مواقف الفتن يا أبا عبدالله؟ قال: «أبواب الأمراء، يدخل أحدكم على الوالي أو الأمير، فيصدقه بالكذب، ويمتدحه بما ليس فيه»، وكان استهلالا بارعا، بقدر ما هو عجيب، واستعاد الناس على فورهم ما سمعوه عن واليهم الجديد، من أنه لا يمقت في الدنيا كلها ولا يحتقر من نقائصها شيئا أكثر مما يمقت النفاق ويحتقره، وكان هذا الاستهلال أصدق تعبير عن شخصية الحاكم الجديد، وعن منهجه في الحكم والولاية.

ومنذ جاء هو وأخوه صفوان في صحبة أبيهما إلى رسول الله ﷺ واعتنق ثلاثتهم الإسلام، والإسلام يزيد موهبته هذه مضاء وصقلا، فلقد عانق دينا قويا، نظيفا، شجاعا قويما، يحتقر الجبن والنفاق، والكذب، وتأدب على يدي رسول الله ﷺ واضحى كفلق الصبح، لا تخفى عليهم من حياته، ولا من أعماق نفسه خافية، صادق وأمين، يحب الأقوياء في الحق، ويمقت الملتوين والمرائين والمخادعين، فلم يكن ثمة مجال ترعرع فيه موهبة حذيفة وتزدهر مثل هذا المجال، في رحاب هذا الدين، وبين يدي هذا الرسول، ووسط هذا الرعيل العظيم من الأصحاب، ولقد نمت موهبته فعلا أعظم نماء، وتخصص في قراءة الوجوه والسرائر، يقرأ الوجوه في نظرة، ويبلو كنه الأعماق المستترة، والدخائل المخبوءة في غير عناء، ولقد بلغ من ذلك ما يريد، حتى كان أمير المؤمنين عمر رضي الله عنه، وهو الملهم الفطن الأريب، يستدل برأي حذيفة، وببصيرته في اختيار الرجال ومعرفتهم.

ولقد أفاء عليه هذا بصرا بالدنيا، وخبرة بالناس، ومعرفة بالزمن، وكان يدير المسائل في فكره وعقله بأسلوب فيلسوف، وحصافة حكيم، ويقول رضي الله عنه: إن الله تعالى بعث محمدا ﷺ فدعا الناس من الضلالة إلى الهدى، ومن الكفر إلى الإيمان، فاستجاب له من استجاب، فحيا بالحق من كان ميتا ومات بالباطل من كان حيا، ثم ذهبت النبوة وجاءت الخلافة على مناهجها، ثم يكون ملكا عضوضا، فمن الناس من ينكر بقلبه ويده ولسانه، أولئك استجابوا للحق، ومنهم من ينكر بقلبه ولسانه، كافا يده، فهذا ترك شعبة من الحق، ومنهم من ينكر بقلبه، كافا يده ولسانه، فهذا ترك شعبتين من الحق، ومنهم من لا ينكر بقلبه ولا بيده ولا بلسانه، فذلك ميت الأحياء».

وخبرة حذيفة بالشر، وإصراره على مقاومته وتحديه، أكسبا لسانه وكلماته شيئا من الحدة، وينبئ هو بهذا في شجاعة نبيلة: فيقول: جئت النبي ﷺ فقلت: يا رسول الله، إن لي لسانا ذربا على أهلي، وأخشى أن يدخلني النار، فقال لي النبي ﷺ: «فأين أنت من الاستغفار؟ إني لأستغفر الله في اليوم مائة مرة».

هذا هو حذيفة عدو النفاق، صديق الوضوح، لقد رأى أباه المسلم يصرع يوم أحد، وبأيد مسلمة، قتلته خطأ وهي تحسبه واحدا من المشركين، وكان حذيفة يتلفت مصادفة، فرأى السيوف تنوشه، فصاح في ضاربيه: «أبي.. أبي.. انه أبي»، لكن القضاء كان قد نفذ، وحين عرف المسلمون، تولاهم الحزن والوجوم، لكنه نظر إليهم، وقال: «يغفر الله لكم، وهو أرحم الراحمين»، ثم انطلق بسيفه صوب المعركة المشبوبة يبلي فيها بلاءه، ويؤدي واجبه.

ويبلغ الخبر رسول الله ﷺ فيأمر بالدية عن والد حذيفة حسيل بن جابر رضي الله عنه، ويتصدق بها على المسلمين، في غزوة الخندق وبعد أن دب الفشل في صفوف كفار قريش وحلفائهم من اليهود، أراد رسول الله ﷺ أن يقف على آخر تطورات الموقف هناك في معسكر أعدائه.

كان الليل مظلما ورهيبا، وكانت العواصف تزأر وتصطخب، كأنما تريد أن تقتلع جبال الصحراء الراسيات من مكانها، وكان الموقف كله بما فيه من حصار وعناد وإصرار يبعث على الخوف والجزع، وكان الجوع المضني قد بلغ مبلغا وعرا بين أصحاب الرسول ﷺ، فمن يملك آنئذ القوة، وأي قوة ليذهب وسط مخاطر حالكة إلى معسكر الأعداء ويقتحمه، أو يتسلل داخله ثم يبلو أمرهم ويعرف أخبارهم؟ ان الرسول ﷺ هو الذي سيختار من أصحابه من يقوم بهذه المهمة البالغة العسر، ترى من يكون البطل؟ انه هو، حذيفة بن اليمان، دعاه الرسول صلى الله عليه وسلم فلبى، ومن صدقه العظيم يخبرنا وهو يروي النبأ أنه لم يكن يملك إلا أن يلبي، مشيرا بهذا إلى أنه كان يرهب المهمة الموكولة إليه، ويخشى عواقبها، والقيام بها تحت وطأة الجوع، والصقيع، والإعياء الشديد الذي خلفهم فيه حصار المشركين شهرا أو يزيد، وكان أمر حذيفة تلك الليلة عجيبا، فقد قطع المسافة بين المعسكرين، واخترق الحصار، وتسلل إلى معسكر قريش، وكانت الريح العاتية قد أطفأت نيران المعسكر، فخيم عليه الظلام، واتخذ حذيفة رضي الله عنه مكانه وسط صفوف المحاربين، وخشي أبوسفيان قائد قريش، أن يفاجئهم الظلام بمتسللين من المسلمين، فقام يحذر جيشه، وسمعه حذيفة يقول بصوته المرتفع: يا معشر قريش، لينظر كل منكم جليسه، وليأخذ بيده، وليعرف اسمه.

يقول حذيفة فسارعت إلى يد الرجل الذي بجواري، وقلت له من أنت؟ قال: فلان بن فلان؟، وهكذا أمن وجوده بين الجيش في سلام، واستأنف أبو سفيان نداءه إلى الجيش قائلا: يا معشر قريش، إنكم والله ما أصبحتم بدار مقام، لقد هلكت الكراع ـ أي الخيل ـ والخف أي الإبل ـ وأخلفتنا بنو قريظة، وبلغنا عنهم الذي نكره، ولقينا من شدة الريح، ما تطمئن لنا قدر، ولا تقوم لنا نار، ولا يستمسك لنا بناء، فارتحلوا فإني مرتحل.

ثم نهض فوق جمله، وبدأ المسير فتبعه المحاربون.

يقول حذيفة: لولا عهد رسول الله ﷺ إلي ألا تحدث شيئا حتى تأتيني، لقتلته بسهم.

وعاد حذيفة إلى الرسول ﷺ فأخبره الخبر، وزف البشرى إليه.

روائع القصص

السعادة الحقيقية

ومن القصص عن أهل القرون السابقة القرن العباسي ان علي بن المأمون والمأمون هذا هو الخليفة العباسي الكبير ـ كان خليفة من أعلم الخلفاء، لكن علمه ممزوج.. بالاعتزال والبدعة ما كان علمه سلفيا صافيا، ولذلك اعترض عليه شيخ الإسلام ابن تيمية وقال: ان الله سيسأل المأمون عما أدخل من الفلسفة في بلاد المسلمين، وهو الذي تزعم القول بخلق القرآن، ونشر هذا المبدأ، وجعل هناك تحالفا بدعيا مع أحمد بن أبي دواد وبشر ومحمد بن جهم وأمثالهم، والشاهد ان ابنه عليا كان أميرا من الأمراء، وكان إذا أصبح الصباح خرج في شرفة القصر ـ في بغداد دار السلام ـ وقصور بني العباس كانت تلمع مع إشعاع الشمس من جودتها، وسموها وسمقها، وورد انهم كانوا يموهونها بماء الفضة، فإذا رأتها الشمس لمعت لمعانا عجيبا، وبهرجا غريبا، فكان يشرف على الشرفة ـ شرفة القصر ـ وينظر الى الناس في أسواق بغداد ذاهبين وآيبين من دجلة الى داخل بغداد، ولفت نظره رجل مسكين فقير كان يعمل حمالا يحمل أكياسا ومتاعا للناس بأجرة، فإذا أتت صلاة الضحى توضأ من ماء دجلة، ثم صلى أربع ركعات، ثم يعود ليعمل الى قرب الظهر، فإذا اقترب الظهر ذهب فنام، فإذا سمع أذان الظهر قام فتوضأ، ثم ذهب الى المسجد فصلى، فإذا صلى أتى فأخذ قطعة من الخبز اشتراها من السوق وشيئا من البقل، فأتى فغسل البقل في نهر دجلة قريبا من قصر الأمير، وأكل هذه القطعة مع هذا البقل، ثم يقوم ويصلي الى العصر، ثم يعمل بعد العصر، ثم يأخذ شيئا ويذهب الى بيته، فأخذ يلمحه طيلة الأيام، وما تغير في سيرته، ولا في برنامجه شيء، فلفت نظره! وقال: أهو سعيد أم شقي؟ وما هي نفسيته؟.. وأراد ان يتساءل معه، فأرسل بعض خدمه اليه.. وقال له: الأمير يدعوك.

قال: ما لي وللأمير.. أنا ما دخلت في حياتي على أمير من الأمراء، ولا أريد شيئا من الدنيا، أي: ليس عندي من المشاكل، ولا من الطلبات، ولا من الأمور التي أعلمها شيء، وما تكلمت في أمير، وما أظن انني أعرف أحدا منهم.

قال: إنه يريدك لأمر.

قال: آتيه غدا.

قال: إنه يريدك اليوم.. فأتى بهيئته، وأسماله البالية، وبثيابه.

فأدخلوا بهذا الفقير المسكين على الأمير، فأجلسه عنده، فلما رآه قال له الأمير: أأنت سعيد؟ قال: الحمدلله أنا في سعادة ما بعدها سعادة، قال: أتريد شيئا من الدنيا؟ قال: لا والله ما أريد شيئا، قال: فإني أعرض عليك شيئا من هذا المال. قال: أسألك بالله عز وجل إلا تركتني وحالي، قال: فكن عندنا في قصرنا، قال: لا.. لا أريد الشقاء، أريد السعادة فيما أنا فيه. قال: ما عملك؟ وما دخلك؟ وأهلك؟ قال: أنا لي زوجة وأخت، زوجة مقعدة وأخت عمياء، وليس لي من الدخل إلا ما أقوته في اليوم.. أذهب في الصباح، فأعمل الى الظهر، ثم أتغدى بهذه الكسرة التي أجدها من العمل، بعد ان أتوضأ وأصلي الضحى، ثم أنام، ثم أصلي الظهر، وبعدها أصلي الى العصر، ثم أعمل قليلا لآخذ إفطارا لزوجتي ولأختي، لأنهما تصومان الدهر.

ذنوب كبيرة

هجر الأقارب

قال الله تعالى: (واتقوا الله الذي تساءلون به والأرحام) أي واتقوا الأرحام ان تقطعوها وقال تعالى: (فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا في الأرض وتقطعوا أرحامكم أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى أبصارهم) وقال تعالى: (الذين يوفون بعهد الله ولا ينقضون الميثاق والذين يصلون ما أمر الله به أن يوصل ويخشون ربهم ويخافون سوء الحساب) وقال تعالى: (يضل به) أي بالقرآن: (كثيرا ويهدي به كثيرا وما يضل به إلا الفاسقين الذين ينقضون عهد الله من بعد ميثاقه ويقطعون ما أمر الله به أن يوصل ويفسدون في الأرض أولئك هم الخاسرون) أعظم ذلك ما بين العبد والله ما عهده الله على العبيد.

وفي الصحيحين أن رسول الله ﷺ قال: «لا يدخل الجنة قاطع رحم» فمن قطع أقاربه الضعفاء وهجرهم وتكبر عليهم ولم يصلهم ببره وإحسانه، وكان غنيا وهم فقراء، فهو داخل في هذا الوعيد محروم عن دخول الجنة، إلا أن يتوب إلى الله عز وجل ويحسن إليهم، وقد ورد في الحديث عن رسول الله ﷺ أنه قال: «من كان له أقارب ضعفاء ولم يحسن إليهم ويصرف صدقته إلى غيرهم لا يقبل الله منه صدقته، ولا ينظر إليه يوم القيامة» وإن كان فقيرا وصلهم بزيارتهم والتفقد لأحوالهم لقول النبي ﷺ: «صلوا أرحامكم ولو بالسلام».

عودة إلى الله

توبة دينار العيار عن المعاصي على يد والدته

وروي أن رجلا كان يعرف بـ «دينار العيار» كانت له والدة تعظه ولا يتعظ، فمر في بعض الأيام بمقبرة كثيرة العظام، فأخذ منها عظما نخرا فانفت في يده، ففكر في نفسه وقال لنفسه، ويحك! كأني بك غدا قد صار عظمك هكذا رفاتا والجسم ترابا، وأنا اليوم أقدم على المعاصي، فندم وعزم على التوبة ورفع رأسه الى السماء وقال: إلهي! إليك ألقيت مقاليد أمري فاقبلني وارحمني، ثم مضى نحو أمه متغير اللون، منكسر القلب فقال: يا أماه! ماذا يصنع بالعبد الآبق إذا أخذه سيده؟ فقالت: يخشن ملبسه ومطعمه ويغل يده وقدمه، فقال: أريد جبة من صوف وأقراصا من شعير وتفعلين بي كما يفعل بالآبق، لعل مولاي يرى ذلي فيرحمني، ففعلت ما طلب، فكان إذا جنه الليل أخذ في البكاء والعويل، ويقول لنفسه: ويحك يا دينار! ألك قوة على النار؟ كيف تعرضت لغضب الجبار؟ وكذلك الى الصباح، فقالت له أمه في بعض الليالي: ارفق بنفسك، فقال: دعيني أتعب قليلا لعلي أستريح طويلا يا أمي، ان لي موقفا طويلا بين يدي رب جليل ولا أدري أيؤمر بي الى الظل الظليل، او الى شر مقيل، إني أخاف عناء لا راحة بعده، وتوبيخا لا عفو معه، قالت: فاسترح قليلا، فقال: الراحة أطلب، أتضمنين لي الخلاص؟ قالت: فمن يضمنه لي؟ قال: فدعيني وما أنا عليه كأنك يا أماه غدا بالخلائق يساقون الى الجنة وأنا أساق الى النار، فمرت به في بعض الليالي في قراءته (فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون) ففكر فيها، وبكى وجعل يضطرب كالحية حتى خر مغشيا عليه، فجاءت أمه اليه ونادته، فلم يجبها، فقالت: قرة عيني أين الملتقى؟ فقال بصوت ضعيف: ان لم تجديني في عرصة القيامة فاسألي مالكا عني ثم شهق شهقة مات فيها فجهزته وغسلته، فخرجت تنادي: أيها الناس! هلموا الى الصلاة على قتيل النار، فجاء الناس، فلم ير أكثر جمعا ولا أغزر دمعا من ذلك اليوم.

توبة رجل عن لبس خاتم من الذهب

عن ابن عباس رضي الله عنهما ان رسول الله ﷺ رأى خاتما من ذهب في يد رجل، فنزعه فطرحه، وقال: «يعمد أحدكم الى جمرة من نار فيجعلها في يده»، فقيل للرجل بعدما ذهب رسول الله ﷺ: خذ خاتمك انتفع به، قال: لا والله لا آخذه أبدا وقد طرحه رسول الله ﷺ.

من التراث

هذا أحمق

قال عبدالله بن عمر بن عبدالعزيز: ما قلب عمر بن عبدالعزيز بصره الى نعمة انعم الله بها عليه الا قال: اللهم اني اعوذ بك ان ابدل نعمتك كفرا، وان اكفرها بعد ان عرفتها، وان انساها ولا اثني بها، وقال روح بن الغاشم: تنسك رجل فقال: لا آكل الخبيص، لا اقوم بشكره، فقال الحسن: هذا احمق وهل يقوم بشكر الماء البارد؟

وصية أب لابنته

اوصى عبدالله بن جعفر بن ابي طالب ابنته فقال لها: اياك والغيرة فإنها مفتاح الطلاق، واياك وكثرة العتاب، فإنها تورث البغضاء، وعليك بالنظافة فإنها تحبب فيك زوجك، واحذري كثرة المطالب من زوجك حتى لا يضيق بك، ولا تهملي مظهرك حتى لا يلتفت زوجك الى سواك، وساعديه على طاعة الله حتى يبارك الله لك في حياتك، وكوني عفيفة اللسان وانت تتحدثين عن اهله، واعتني بنظافة منزلك حتى تجعليه المكان المفضل لزوجك.

غزوات الرسول

غزوة بدر الكبرى
أول مبارزة في الإسلام

خرج عتبة بن ربيعة بين أخيه شيبة بن ربيعة وابنه الوليد بن عتبة ووقفوا بين الجيشين، ودعا عتبة الى المبارزة، فخرج اليه فتية من الانصار ثلاثة اخوة، وهم: معاذ، ومعوذ، وعوف بنو الحارث.

فقال عتبة: من انتم؟ فقالوا: رهط من الانصار.

قال: ما لنا بكم من حاجة، ثم نادى: يا محمد اخرج الينا اكفاءنا من قومنا، فأمرهم ﷺ بالرجوع فرجعوا الى مصافهم ثم قال ﷺ :«قم يا عبيدة بن الحارث، وقم يا حمزة وقم يا علي» فلما قاموا ودنو منهم قالوا: من أنتم؟

قال عبيدة: عبيدة، وقال حمزة: حمزة، وقال علي: علي.

قالوا: أكفاء كرام. فبارز عبيدة ـ وكان اسنهم ـ عتبة بن ربيعة، وبارز حمزة شيبة بن ربيعة، وبارز علي الوليد بن عتبة. فأما حمزة فلم يمهل شيبة ان قتله، واما علي فلم يمهل الوليد ان قتله، واختلف عبيدة وعتبة بينهما ضربتين كلاهما جرح صاحبه جراحة بالغة وكر حمزة وعلي باسيافهما على عتبة فأسرعا في قتله، واحتملا عبيدة الى جيش المسلمين، واضجعوه الى جانب موقفه ﷺ فأفرشه قدمه الشريفة، فوضع عبيدة خده عليها، وقال: ألست شهيداً يا رسول الله؟ فقال ﷺ: «أشهد أنك شهيد» وتوفي رضي الله عنه قبل وصوله الى المدينة المنورة في الصفراء ودفن بها.

ثم تزاحف الناس، ودنا بعضهم من بعض، بعد هذه المبارزة التي كانت اول مبارزة في الاسلام، وامر رسول الله ﷺ اصحابه الا يحملوا حتى يأمرهم، وقال: «إن اكتنفكم القوم فانضحوهم عنكم بالنبل، واستبقوا نبلكم، ولا تسلوا السيوف حتى يغشوكم».

ثم عدل ﷺ الصفوف، ورجع الى العريش فدخله ومعه ابو بكر الصديق رضي الله عنه، ليس معه فيه غيره، فناشد ربه ما وعده من النصر: «اللهم ان تهلك هذه العصابة لا تعبد في الارض» لأنه ﷺ يعلم انه آخر النبيين، فإذا هلك هو ومن معه لا يبقى من يتعبد بهذه الشريعة.

ويقول ابو بكر: يا نبي الله، ان الله منجز لك ما وعدك.

وخفق رسول الله ﷺ خفقة ـ أي خذته سنه خفيفة من النوم، وهو في العريش، ثم انتبه فقال: «أبشر يا أبا بكر ـ أتاك نصر الله، هذا جبريل آخذ بعنان فرس يقوده على ثنايا النقع» أي الغبار، ثم التفت ﷺ وكأن شق وجهه القمر، وقال: «كأني أنظر الى مصارع القوم عشية».

● الشيخ سيد الرفاعي